هل يشاهد بايدن فيلم «الهدية»؟

معن البياري

جاء صعود فيلم الفلسطينية البريطانية، فرح نابلسي، «الهدية» إلى القائمة القصيرة (ستة أفلام) للتنافس على جائزة أوسكار لفئة الأفلام القصيرة (مدته 25 دقيقة)، تكريما عاليا له مستحقا، وإن لم يظفر بالجائزة. وهو الذي أحرز جائزة الأكاديمية البريطانية للأفلام (نافتا) لأفضل فيلم، وجوائز أخرى في ثلاثة مهرجانات دولية للسينما. ويجد صاحب هذه الكلمات أن ثمّة تثمينا بالغ القيمة تأتّى للفيلم، في نشر مدير وكالة المخابرات المركزية الأميركية السابق (2013 – 2017)، جون برينان، مقالا عن إعجابه به في صحيفة نيويورك تايمز، ويطلب من الرئيس الأميركي جون بايدن مشاهدة هذا الفيلم، ليتعرّف على «الإجراءات الأمنية الخانقة» التي يعاني منها المواطن الفلسطيني تحت «الاحتلال العسكري الإسرائيلي»، ذلك أن على «الولايات المتحدة أن تطلب من القادة الإسرائيليين الكفّ عن البناء الاستيطاني الاستفزازي، والممارسات القمعية الموصوفة في الفيلم». يعاني «يوسف» من آلام في ظهره، يريد أن يشتري هدية لزوجته في عيد زواجهما، ثلاجة جديدة للمنزل. يصطحب طفلته إلى السوبرماركت ليشتري حاجيات، ثم ليشتري الثلاجة. يعبر من حاجز للاحتلال معها بصعوبة وتفتيش مشدّد، بعد اصطفافه في طابور يضم فلسطينيين يريدون العبور. بعد شرائه الحاجيات والثلاجة، يريد العودة بهما إلى منزله الذي يبعد أمتارا عن الحاجز البغيض. يتعرّض للتفتيش والإذلال من جنديين ومجندات، متمنطقين السلاح الذي يشهرونه في وجهه، وهو في انفعاله الساخط على الاستهانة به، عندما لا يكون في وسعه تمرير الثلاجة إلى الجانب الآخر. لكن ابنته تفعل هذا، وتمرّر الثلاجة من المعبر المخصص للإسرائيليين المستوطنين. الفيلم شديد البساطة في حكايته، متقنٌ في لقطاته وتصويره الذي أمكن أن ينقل للمشاهد ليس فقط العذاب النفسي والقهر الإنساني الذي يتعرّض له الفلسطينيون عند حواجز جيش الاحتلال، وإنما أيضا تفاصيل دقيقة تزيد الصورة العامة انكشافا على القسوة والفظاظة اللتين يتعمّدهما المحتلون في التعامل مع الفلسطينيين. وقد أجاد الممثل صلاح بكري في التعبير عن مشاعر الحنق، كما عن مشاعر الانكسار أمام طفلته، وذلك بعد مشاهد الدفء والحميمية مع زوجته في المنزل، وحواراته مع ابنته في أثناء «رحلة» الشقاء التي ينشغل الفيلم بتشخيص أثرها النفسي العميق على الأب المتعب.

لا تدري المخابرات الأميركية عن ممارسات المحتل الإسرائيلي التي تنغّص حياة الفلسطينيين في وطنهم، دعك عن الجرائم والاعتداءات وجولات القتل والاعتقال ومصادرة الأراضي ونهبها وتدمير المحاصيل. لواحدنا أن يسأل: هل يحتاج مديرُ لهذه المخابرات إلى فيلم سينمائي قصير ليعرف أي عنتٍ يغالبه الفلسطينيون تحت الاحتلال؟ ينصرف مقال جون برينان في «نيويورك تايمز»، وله أهمية من قبل ومن بعد، إلى تجاهل الولايات المتحدة خلال سنوات الرئيس ترامب «المصالح والتطلعات الفلسطينية»، ومع تثمينٍ للروحية الإيجابية في المقال، فإن سؤالا سيُضاف إلى السابق، عما بادرت إليه إدارة الرئيس باراك أوباما، إبّان كان برينان في موقعه الاستخباري النافذ، من أجل تطلعات الفلسطينيين. من المدهش حقا أن يكتب برينان إن فيلم فرح نابلسي جعله يتذكّر شعورَه بالأسى لمّا شاهد جنودا إسرائيليين عديدين يقومون بعمليات تفتيش عدوانية عند سياج شبكي، في أثناء زيارته الأولى للضفة الغربية في 1975 .. مبعث الدهشة أن المسؤول الأول في المخابرات الأميركية لا يتزوّد بتقارير عن الأوضاع في الأراضي الفلسطينية، ولو في ما يتعلق بالتقديرات الأمنية، فتعرّفه بالذي رآته عيناه قبل نحو أربعة عقود، ثم بالذي استشعره بعد مشاهدته فيلما سينمائيا متقنا، قصيرا، رأى أن على رئيس الولايات المتحدة أن يشاهده أيضا، ربما ليقينه أن مكتب الرئيس لا تصل إليه المعلومات الوافية، الدقّقة، الصحيحة، عن الأحوال في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

هذه واحدة من خلاصات يمكن الخروج بها من مقال برينان في «نيويورك تايمز»، أن السفارة الأميركية في دولة الاحتلال لا تزود المستوى السياسي والأمني في واشنطن بإفادات موضوعية عن واقعٍ ماثل.

جملكة البلاد وجعلكة العباد

ممدوح حمادة

- يا حكيم، قل لي من فضلك ما الفرق بين الرئيس والزعيم؟

تساءل مواطنٌ غشيم، فأجابه بعد أن تلفت حوله للتأكد من خلو المكان من المتطفلين، وشغل جهاز التسجيل للتشويش على آذان الحيطان، مواطن حكيم:

- الرئيس، يا ولدي، بيجي بالانتخابات وبيروح بالانتخابات.

- والزعيم؟ تابع الغشيم مستفسرا، فردّ الحكيم:

- الزعيم ياتيك بالف لبوس ولبوس، بالانتخاب، بالانقلاب، بالمؤامرة وغيرها، وبيروح لزقة فرنجية، حتى يأخذ صاحب الأمانة أمانته، أو حتى يأتي بوسيلة مشابهة زعيم آخر. واللزقة الإفرنجية طبية، توضع على الظهر ويصعب نزعها من هناك، بسبب قوة اللاصق فيها. انطلاقا من كلام الحكيم المجهول هذا، يمكن القول، وبكل ثقة، إنه ليس في بلادنا سوى «اللزقات الإفرنجية»، أي الزعماء الذين تذهب اللزقة الإفرنجية ولا يذهبون. يأتون ولا يغادرون إلا إلى القبر. في البداية، يأتونك على شكل قطيع حزبي، أو حركي، يقوم بامتلاك الجيش والمؤسسات القمعية وكل مفاتيح البلد، ويتم حصر تداول السلطة ضمن هذا القطيع الذي يعتبر البلاد للزعامات، حيث يبدأ النطاح ضمن قيادة الحزب، فينتصر أحدهم إلى أن يحين موعد النطاح التالي، وهكذا، إلى أن ينتصر في النطاح نصرا نهائيا أحد هؤلاء، فيبدأ بالتفكير في مستقبل أولاده. وهنا تبدأ عملية «جملكة» البلاد واستبدال ديكة الحزب أو الحركة بصيصان الزعيم، وتبدأ الثورة بأكل أبنائها، إما عبر السجون أو تعيينهم سفراء في بلاد بعيدة. ويبدأ تدجين الصف الثاني من الديكة، أو قصقصة أجنحتهم، أو رقابهم إذا لزم الأمر. أما «جعلكة العباد»، فتبدأ منذ اللحظة الأولى لقدوم الزعيم، حيث يتحوّل هم الزعامة إلى تثبيت أقدامها، عبر كم أفواه كل معترضٍ موجود، أو حتى محتمل. ولهذا فقد يذهب شخص ما ضحية خفّة دمه، حيث سمح لنفسه برواية نكتة فيها إساءة للزعيم، وقد يذهب آخر ضحية أذنيه، لأنه سمع ولم يبلغ. وبالطبع، ستصبح جريمته أكبر إن لم يتمكن من السيطرة على شفتيه وابتسم، فما بالك إن كان صاحب رأيٍ؟ هذا تتم «جعلكة» حياته، وحياة كل من قال له صباح الخير. تبدأ المرحلة الثانية من عملية جعلكة العباد بالتمثيليات الهزلية التي يُجبر الناس على المشاركة فيها، وأولها ابتكار مؤسسات ديمقراطية، مثل البرلمان، أشبه ما تكون بمسرح الدمى، لأنه عمليا لا يملك زمام القرار في أي أمر. يتبع ذلك بالقضاء، على القوى السياسية التي يمكن أن تشكّل منافسا للزعيم، فيتم تدمير ما هو غير قابل للترويض منها، وتدجين القسم الآخر عبر زجّه في تحالفاتٍ تحت مسمّى «شريك في الحكم». ولكن الحقيقة جعله شريكا في المسؤولية عن قرارات وإجراءات ليس له يد فيها، يترافق ذلك مع تدمير وسائل التعبير عن الرأي عبر القضاء على المنابر الصحافية، والإبقاء، فقط على ما يتبع له منها، أو ما يقوم هو بالسماح بتأسيسه تحت إدارة جهات «مستقلة» بهامش حركة صغير. وتبلغ الجعلكة ذروتها مع ممارسة العباد حقهم الانتخابي، كما يصرّحون في اللقاءات العشوائية التي يجريها معهم التلفزيون، وهم يعلمون أن لا قيمة إطلاقا لصوتهم.

كان الاستفتاء، بداية، حيث كان عليهم الاكتفاء بقول «نعم» أو «لا». والأخيرة صعبة، حتى لو كان التصويت في غرفة سرّية، وهناك كثيرون ممن «صوفتهم حمراء» كانوا يتضايقون من الانتخابات في الغرفة السرّية، كون ذلك يجعلهم محط شك، في حال عثر في الصندوق على «لا». ولذلك كانوا يخرجون من الغرفة السرّية، ويعرضون ورقتهم متسائلين: «هكذا صحيح؟»، ويرى الجميع أنهم كتبوا نعم، فيتنهدون الصّعداء، ويناموا مرتاحين. وحفاظا على ماء الوجه أمام باقي الأمم، تم اختراع الانتخابات التي فيها منافسون أقل ما يقال فيهم إنهم أعضاء في الحملة الانتخابية للزعيم أكثر منهم منافسين، وذلك كله بحدّ ضمن ما تسمى أعراسا انتخابية، تشبه زفاف صبيةٍ اعتصبها رجل، فحكم عليه القاضي بالزواج منها «سترا لها»، كما تنص عليه مواد بعض القوانين العربية. وبهذا الشكل، يتابع اغتصابها ولكن بشكل شرعي.

سامحك الله يا كيم إيل سونغ.

هذه المشيخةُ السوريّة وأوركسترا تعظيم القائد

عبير نصر

منذ وصول الأسد الأب إلى سدّة الحكم، عمدت أجهزةُ المخابرات السورية إلى احتواء أيّ حزبٍ أو تجمّع أو ظاهرة، ولا سيّما إن كانت دينية الطابع، خوفاً من ظهور تنظيماتٍ إسلاميةٍ متطرّفة تخرج عن نطاق السيطرة. وكانت أحداثُ الثمانينيات التي تُوّجت بمجازر حماة نهايةً لحقبةٍ من العمل الإسلامي، إلّا أنّها كانت، في الوقت نفسه، مبعثاً لولادةِ عملٍ مختلف، ومنطلقاً لرسم خريطةٍ دينيةٍ سياسية جديدة، فبدأت شخصيّاتٌ وجماعاتٌ تطفو على السطح، لتعيدَ تشكيل كياناتٍ قائمة، وتغيّر في وسائلها وتكتيكاتها. وعليه، بدأت في نشر تديّنٍ شعبيّ، أو علميّ تخصصي، أو مسجديّ حلقيّ يتلاءم بتنوّعاته مع معطيات البيئة المحيطة اجتماعيّاً وسياسيّاً. وغدا الثالوث المقدس (السياسة – الأيديولوجيا – الدين) في علاقةٍ تشابكٍ معقدة، تؤكد أنّ ما يفرض سلطة الأيديولوجيا أو الدين هو انحيازُ السياسي الذي يعتمد على التغلغل في الأنسجة من قوى دافعة للعمل السياسي، وبالتالي لا يظهر الدور الفجّ للسياسة، إنما تظهر سلطة كلّ من الدين والأيديولوجيات، ليبقى للسياسة فعلها المقنّع، أو الخفيّ، أو غير المحايد في الواقع.

في المقابل، شجّع النظام السوري قيامَ حركاتٍ إسلامية «دعوية» غير سياسية، ما غرّف بالإسلام الصوفي الذي قاده الشيخ أحمد كفتارو، المعروف بعدائه للإخوان المسلمين. وعمل الأخيرُ جاهداً على استيعاب مشايخ الدين وخطباء المساجد، كما عيّن عديدين من وزراء الأوقاف الموالين له. وأفرزتْ هذه الصيغة جوقةً من المشايخ يسيطرون على الساحة الدينية، ولا ينطقون سوى بتعظيم القائد وتأليه كلّ حرفٍ يقوله، كذلك الدعوة لتثبيت حكمه في كلّ صلاة. والتحالف بات واضحاً بين النظام البعثي والمشيخة السنّية في سورية، في غياب الكتلة الوازنة من العلمانيين الوطنيين. وعمل حافظ الأسد على تكريس هذا التحالف، فكانت الصورة الأولى التي تتداولها له وسائل الإعلام، عقب الانقلاب البعثي الشهير، خارجاً من الجامع الأموي، وعن يمينه الشيخ كفتارو، مارّاً بسوق الحميدية الذي ارتفعت فيه لافتة مكتوب عليها من تجّار دمشق «طلبنا من الله المدد فبعث لنا حافظ الأسد». وبناءً على الرؤايات الكثيرة، كان الشيخ أحمد كفتارو يتحدّث، في درسه العام وخلال مناسبات عدّة، أنّ حافظ الأسد زاره قبل القيام بالانقلاب، واستشاره في موقفه، فقال له الشيخ: «إن لم تفعلوا أنتم هذه الخطوة فسنليس نحن البدلة العسكرية ونحمل البوارد ونقوم بها».

وعلى خطى جمال عبد الناصر مع الأزهر أو عمر البشير مع حسن الترابي، عمل الأسد الأب على استخدام سلطته السياسية لتثبيت شرعيةٍ دينيةٍ على حكمه، بعدما اتهمه الإخوان المسلمون في السبعينيات بأنّه غير مسلم. وكان الأسد يعلم أن وضعه غير طبيعي، إذ كيف يحكم الأكثرية، وهو من طائفة أقلّية؟ لذلك استعان بالمشايخ الذين بنافقون له ويجمّلون صورته. وكانت نقطة التّحوّل في العلاقة مع المؤسسة الدّينيّة مع محاولات تمرير دستور عام 1973، بعد حذف المادّة الثالثة منه التي تنصّ على أنّ دين رئيس الدّولة هو الإسلام، وأنّ الفقه الإسلاميّ مصدرٌ رئيسيّ للتّشريع، فكانت المواجهة الأعنف مع علماء حماة وحمص ومشايخها، إذ اكتست طابعاً جماهيرياً من خلال المظاهرات والمواجهات مع أجهزة الأمن. وفي وسط كلّ هذه المعمعة، لم يكن للشّيخ كفتارو أيّ صوتٍ، سواء في إطار الاعتراض أو التّأييد، ولم يبدر منه أيّ موقفٍ تجاه تعديل الدّستور، على الرّغم من أنّه المفتي العام، ومنصبه يتطلّب موقفاً معلناً. كما أنّ غياب الشّيخ أحمد كفتارو عن جنازتي مؤسس جماعة زيد، عبد الكريم الرفاعي (1973)، وعالم الدين الشيخ حبنكة الميداني (1978)، وما جرى من قبل في جنازة الشيخ سعيد البرهاني في 1967، يكشف حجم الشّرخ وعمقه، كما يكشف عن درجة الاحتقان العالية في أوساط المؤسسة الدّينيّة. في المقابل، كانَ تغيّب حافظ الأسد عن جنازتي الشّيخين الرّفاعي وحبنكة اللذين فشل في التّقرّب منهما سابقاً، وحضور جنازة نجل الشّيخ كفتارو دلالةً واضحةً على وجهة النّظام التّحالفيّة داخل المؤسّسة الدّينيّة من جهة، وقدرته على استخدام دبلوماسيّة الجنائز لإيصال رسائله وتحقيق أهدافه من جهة أخرى، وعلى الرغم من اعتماد النظام السوري صيغة علمانية، بحسب زعمه، فإن تعامله مع الأديان لم يوفر أيّ فرصةٍ لاغتنام الرصيد المعنوي لأيّ رجل دين، لدعم حكمه وترسيخ هيبته ومرجعيته السياسية الأحادية. ولعلّ أبرزَ الأحداث التي غذتْ مثارَ جدلٍ طوال حكم الأسدين، اندلاع الثورة السورية عام 2011، وموقف العلماء ورجالات الدين من هذه الانتفاضة الشعبية، من بينها موقف أكبر عمامة في سورية، محمد سعيد رمضان البوطي، الذي أمّ صلاة الجنازة على حافظ الأسد، فكانت إمامته الصلاة آنذاك شرعنةً صريحةً لنظام التوريث الأبوي. واستمر دعمه للأسد الابن والدفاع عنه حتى آخر لحظة من حياته، حيث وصف قادة الثورة السورية بـ«قادة الهرج» و«منفّذي الأوامر الخارجيّة»، ورأى فعلهم لذلك انقياداً لأمر أمر أو استفادة من مال يسير يُوضع في الجيب. كما خصّص الشّيخ البوطي عدّة خُطب للتحذير من هذه التيارات والحركات، باعتبارها أدوات عمليّة، تُحركها اليد الخفيّة التي تلعب من وراء البحار.

واحتضن النّظامُ السّوري، عبر أذرعه وأجهزته المخابراتيّة، هذا التديّن، وسيطر على أربابه، وعلى المجتمع المتأثّر بأقوالهم وأفعالهم. وعكست الممارسةُ الميدانيّة، المرتكزة على غياب مواجهةٍ فاعلةٍ مع العرش الاستبداديّ، العلاقةَ الأصيلة بين المؤسسة الدينية والنظام الحاكم الذي عمد إلى ترسيخ الزّبائنيّة داخل الميدان الديني، عبر تشجيع المنافسة المحلية على الموارد واللّجوء إلى المحاباة، ففي مدينة حلب، مثلاً، نُقلت المناصب الأساسية، تدريجياً، من الشبكات الدينيّة التابعة لآل الشامي إلى الشبكات الدينيّة التابعة للمفتي العام للجمهورية أحمد بدر الدين حسّون. ومع اتخاذ الانتفاضة الشّعبيّة منحىً عنفياً، أعلن مجلس الإفتاء الأعلى السوري أنّ الجهاد ضدّ كلّ من وقف واستهدف سورية فرض عين، ليس على السوريين فحسب، وإنما على كلّ الدول العربية والإسلامية. ولم تفاجئ هذه «الفتوى» الشّعب السوري الثائر، إذ إنها أتت كتحصيل حاصل لمواقف المفتي حسون الذي كان ولاؤه للنّظام السوري ولا يزال أشبه بالعلامة الفارقة. ولعلّ أول مواقفه شبه الرسمية خلال أحداث «مجزرة حماة» عام 1980، حين عمّ الإضرابُ أسواقَ حلب، وأمر حافظ الأسد وقتها قوات الجيش باقتحام المدينة، وتكسير أقفال المحلات التجارية المضربة، وفي هذه الحادثة، بحسب ناشطين، لم يجد أحمد حسّون حرجاً في مرافقة قوات الجيش في مهامها، حاملاً مكبّر فونٍ مخاطباً الناس: «الإضراب حرامٌ شرعاً لأنّه يضرُّ باقتصاد البلاد».

يدرك النّظامُ السوري الدورَ الإنساني والاقتصادي الاجتماعي الحيوي الذي كانت المؤسسات الدينية تؤدّيه قبل العام 2011 وبعده، فعمل جاهداً على اللّعب على تناقضات المؤسّسة الدّينيّة، وإبقائها في حالة الاحتياج إليه، والشّعور بالتّهديد القانونيّ بالإغلاق، ما سيدفع أركان هذه المؤسّسة إلى التّسابق في ما بينهم، لتقديم فروض الطّاعة والولاء. وقد تمّت السيطرة على المؤسسة الدينية نفسها عن طريق دعم العناصر الضّعيفة فيها نفسياً أو اخلاقياً، وتسفيه أيّ سلطةٍ رمزيّةٍ دينية، وبالتالي إفقاد المؤسسة باكملها وما تمثله من نشاط ونشطاء وقيم وعقائد وأفكار، أيّ صدقيّة أو اعتبار. وهذه اللعبة الخطرة التي يتفنّن النظامُ في تحريكها ستؤدّي، في النهاية، إلى ابتلاع مشروع الدولة الديمقراطية، وربما ابتلاع النظام نفسه.

(كاتبة سورية)

> لم يوفر النظام أيّ فرصة لاغتنام الرصيد المعنوي لأيّ رجل دين، لدعم حكمه وترسيخ مرجعيته الاحادية

مأدبة إفطار على شرف الشيخ جرّاح

عيسى الشعيبي

في ابتكار كفاحي ملهم، أبدعته روح المقاومة الشعبية المتدفقة من أعطاف مدينة القدس، استخدم المقدسيون، قبل نحو ثلاث سنوات، أداةً نضاليةً خلاقة، وغير مسبوقة، في فضاء الدفاع عن الذات الوطنية والحرية الدينية، من خلال إقامة الصلوات على الأرصفة، وعند مداخل بوابات المسجد الأقصى، رفضاً لسياسات الاحتلال وضع كاميرات مراقبة، وأجهزة سيطرة إلكترونية، على مداخل الحرم القدسي، الأمر الذي حمل المحتلين حثلاً على التراجع من دون قيد أو شرط، ومن ثمّة تسجيل سابقة فوز نادرة في تاريخ الصراع المديد.

وفي أواسط شهر رمضان الحالي، دوّن الشباب المقدسي نصراً جزئياً ثانياً في باب العامود، عندما واصلوا، بثبات يملأه العنفوان، التمسّك بحقهم المشروع في إحياء تقاليدهم الرمضانية على مدرجات أشهر بوابات البلدة العتيقة، فارغموا القوات المدجّجة بالقوة المجرّدة وبالغطرسة، على الانكفاء، مرة أخرى، وذلك من دون أن يرموا حجراً أو يطلقوا رصاصة، فكان ذلك إبداعاً كفاحياً جديداً، مستلهماً من روح انتفاضة الحجارة الباسلة، ومؤسّساً على فلسفة عدم الانجرار إلى لعبة القوة التي تتلهف لها إسرائيل. ها نحن اليوم أمام إبداع كفاحي ثالث، تتجلّى مظاهره الباذخة في حي الشيخ جرّاح، المطلّ على باب العامود، من خلال إقامة مأدبة إفطار متواضعة، ليس تضامناً مع العائلات المقدسية المهدّدة بالطرد من بيوتها فحسب، وإنما أيضاً دفاعاً عن عروبة المدينة الجاري تهويدها، وتشبثاً بهويتها الحضارية، الأمر الذي أوجد مشهداً كفاحياً لا سابق له في تاريخ حركات التحرّر، أساسه فعلٌ مدنيٌّ سلمي مقاوم، يتسع لأوسع المشاركات الممكنة، وغير قادر على الكلفة بالضرورة، ويستجيب، في الوقت ذاته، إلى شروط المكان والزمان، وإكراهات الظروف الموضوعية.

وأحسب أن تلك المأدبة الرمضانية التي أثارت حفيظة قطعان المستوطنين، لمّا تكرّرت في اليوم التالي، كانت بمثابة مأدبةٍ تكريميةٍ مقامةٍ على شرف الأمير حسام الدين بن عيسى الجراحي، طبيب صلاح الدين الأيوبي، وأحد قادته المظفرين، المدفون في الحي الذي يحمل اسمه، مأدبةٍ تشارك في إقامتها مواطنون مقدسيون من الأحياء المجاورة، وفعاليات محلية، وشباب من عرب 48، بمن فيهم طلاب عرب يدرسون في الجامعة العبرية القريبة من الشيخ جرّاح، الأمر الذي أضفى على هذه المأدبة بعداً وطنياً جامعاً، وجلب لها زخماً مضاعفاً، وطوّبها أداة كفاحية ملهمة.

لم يكن المشهد المقاوم في «الشيخ جرّاح» نسخة طبق الأصل عما جرى أمام بوابات الأقصى، أو وقع في باب العامود، إلا أنه ظل ينتسب إلى أرومة المقاومة الشعبية المتواصلة ذاتها، صفحةً مضافة إلى سجل الانتفاضة الأولى، تلك الانتفاضة المستمرّة بتوثير مختلفة باختلاف البيئة السياسية المتغيّرة، المتواصلة بأدوارٍ نضاليةٍ متنوعة، المتنقلة بين دروب نضال متعدّدة، بما في ذلك دروب الصمود والتمكين والمقاومة الشعبية، فضلاً عن مسارات الدبلوماسية الهجومية، في نيويورك ولاهاي وجنيف، ناهيك عن الواقعية الثورية والاعتدال، ومنظمات حقوق الإنسان والميديا والأكاديميا، وقطاعات نوعية من الرأي العام. وعليه، بدت الصورة الكفاحية المتجلية في الشيخ جرّاح، إثر تلك المأدبة، أشد مضاءً من سابقتها في باب العامود، وأجزل منها معنىً في البلاغة الوطنية، ففيما بدا المشهد على مدخل البلدة القديمة، على روعته، فقيراً في خطابه السياسي، وبلا روافع تنظيمية، وغير قادر على حمل متطلبات الاشتباك حول مسائل ثقيلة الوزن، كحماية صناديق الانتخابات التشريعية مثلاً، بدا المشهد من «الشيخ جرّاح» مفعماً بروح قتالية متوثبة، ومحمولاً على أكتاف قضية كبيرة، ظاهرها الدفاع عن البيوت المهدّدة بالمصادرة، وفي قلب القلب منها الذود عن حاضر القدس وعن مستقبلها، عاصمة لدولة فلسطينية مستقلة. ذلك أن المعركة في الشيخ جرّاح، على عكس نظيرتها في باب العامود، مفتوحة، محقّة وعادلة من دون جدال، مشروعة إلى أبعد الحدود، وباعثة على تنديد دولي عارم إزاء، فعلة عنصرية وقحة، إلى جانب أنها معركة قابلة للاتساع، والبناء عليها مدماكاً فوق مدماك، في صرح بنية مقاومةٍ منهجيةٍ عريضة، تعد بمواجهاتٍ أكثر سخونة، تستقطب مزيداً من الناس والفصائل والقوى الشعبية. وفي ذلك كله ما يستحق المراهنة على هذه المأدبة المقامة تكريماً لرمزية الشيخ ابن عيسى الجرّاح.

دولة أم «أكاونت»؟

محمد طلبة رضوان

في خطاباتنا، الاحتفائية والتبجيلية، إذا أردنا أن نصف كيانا افتراضيا بأنه فاعل ومؤثر وأكبر مما يمثّله، أو يتوقع منه، وصفناه بالدولة، فلان دولة، المؤسسة دولة، الحزب دولة، النادي دولة.. الدولة هنا رمز لكل ما هو كبير وفاعل ومؤثر، و«حقيقي»، وهو ما أورثتنا إيّاه، على الأغلب، خطاباتٌ سياسيةٌ رسميةٌ تبالغ في تمجيد دور الدولة وقدسيتها، وتجعل منها إله المواطنين الذي يدينون له بولاء يتجاوز الانتماء إلى العبادة، الولاء المطلق، والطاعة المطلقة، والتضحية بكل شيء، من أجل لا شيء، ومن دون سؤال أو مساءلة! تبدأ أحداث حي الشيخ جرّاح في القدس العربية المحتلة، وتستمر أياما، محاولات إجرامية لتهجير السكان الأصليين للحي، أصحاب الحق، والبيوت، والتاريخ، والعلامة الزمانية والمكانية، وإحلال مستعمرين، محتلين، مكانهم. فصل عنصري، وتهجير قسري، واعتداءات نالت من مئات، شهداء وجرحى، يحمون أموالهم وأعراضهم. انتزعت الأحداث الغفلة العربية عن القضية الفلسطينية من تفاصيل صغيرة وبائسة، بلا معنى، بلا قيمة، مجرد تفاصيل. «ملء هوا»، كما يقول المشتغلون بالإعلام، حين يعبرون عن محتوى فارغ من القيمة، ولا فائدة من ورائه سوى استهلاك وقت المشاهد في لا شيء، حتى يمر اليوم، وينزاح. ألقت بنا من جديد حيث ينبغي أن نكون، هناك، حيث قضيتنا المركزية، والسبب الرئيس في نكباتنا الداخلية، المحلية والإقليمية، منحت بيوت الشيخ جرّاح وأهلها للشهر الكريم معناه، للعبادة معناها، للصوم، والصلاة، والذكر، والدعاء، لانتظار ليلة القدر، وتحرّيها، ومراقبة السماء. كان صمود أصحاب الحق المقدسي في مواجهة آلة القمع الصهيونية خير من ألف شهر من العظات، المعلبة، المكرّرة، الميتة، بلا روح. نفخ المقدسيون من روحهم في أجسادنا الافتراضية، فصرنا هنا، وصار الوقت وقتا.

تجاوب العالم مع ما يحدث في حي الشيخ جرّاح، على الرغم من كونه عاديا، وبومية، ومسبوقا، ومكرّرا، بالنسبة للفلسطينيين أنفسهم. وصدرت خطابات سياسية تحمل نفسا جادّاً، وتعاطفاً، وتضامنات، واستنكارات، أوروبية وأميركية. الكونغرس نفسه، (الآن مع جو بايدن)، تحرك بعض أعضائه، من الديمقراطيين، تكلموا، غرّدوا، وصفوا ما يحدث بما يليق به: «تهجير قسري». «نشر للعنف». «فعل غير قانوني».. «انتهاك للقانون الدولي».. «تصرّف بغيض». أعلن أعضاء في الكونغرس تضامنهم مع الفلسطينيين، طالبوا إدارتهم بمطالبة إسرائيل بالتوقف عن تهجير السكان، أعلنوا بوضوح أنه ليس وقت البيانات الفاترة، وأن إدارة بايدن مطالبة بالتحرّك. إذا كانت، حقا، تضع سيادة القانون وحقوق الإنسان في صلب سياساتها الخارجية.

أين الإمارات، «الدولة»، ودورها الإقليمي، ومركزيتها، وفاعليتها، ووعودها بأن العلاقات «الحميمية» مع الصهاينة سوف تفتح بابا لمساعدة الفلسطينيين، بعيدا عن خطاباتنا العنترية والحنجورية والساذجة، وما شئت من نعوت الانتقام؟ أين المغرب، وحكومتها «الإسلامية»، ووعودها الماثلة؟ أين مصر (والسؤال لا يخلو من كوميديا سوداء)، التي تبنّى رئيسها مزيدا من سياسات الاستسلام، وسمّاها سلاما، ودعا إليها، ورحّب بها، وشارك فيها، وبارك خطواتها، فأين هو، ودولته، وخارجيته، وماذا استفدنا؟ تحوّل النشطاء «الحنجوريون» إلى «دولة»، فوق الأرض لا الهتاف، دولة لها صوت، وجيش، دولة تقاوم، وتحمي بيوتها، وأرضها، وتجبر العالم، ومعه دول وأنظمة حليفة للمحتل، على احترامها، ومتابعتها، والاصطفاف معها، والمطالبة بحقوقها، فيما تحوّلت «دولُ مزعومة» إلى «أكاونتات»، حسابات افتراضية، في واقع افتراضي، ترسل كلماتٍ تشبه الكلمات، وبياناتٍ تشبه البيانات، واستنكاراتٍ تشبه أصحابها، لزجة وباردة وبلا معنى.

هل «يتحمّل» المغرب توتّرين مع مدريد وبرلين؟

عبد الحميد اجماهيري

استدعت الرباط سفيرتها في ألمانيا، في خطوة دبلوماسية غاضبة، وأصدرت في اليوم نفسه بلاغاً (بياناً) شديد اللهجة ضد إسبانيا، بعد خطوة تصعيدية ضد الجار الشمالي، بعد خطوات سابقة كشفت وجود توتر بين البلدين. وفي الخطوتين، أبانت المملكة المغربية عن صرامة وصرامة دبلوماسيتين، إزاء دولتين أوروبيتين، تشترك معهما مصالح كثيرة: إسبانيا، تقتسم معها جواراً أورو - متوسطياً، وتاريخاً ملتهباً، بوصفها دولة استعمرت شمال المغرب وجنوبه، وذاكرة عميقة، من قصور الحمراء الأندلسية إلى رمال الصحراء. والمانيا، كان الظاهر من علاقتها مع المغرب، اقتصادياً محضاً وتكنولوجياً وتعاونياً، بلغ أرقاماً محترمة في الآونة الأخيرة... ما الذي جعلهما في فوهة التسديد الدبلوماسي للتعبير عن الغضب المغربي؟

في البلاغ الصادر بخصوص استدعاء السفيرة المغربية في برلين، يستند الموقف المغربي، الذي يعدّ في قاموس العلاقات الدولية، تعبيراً عن اضطراب في العلاقات بين البلدين، وتعبيراً دبلوماسياً متعارفاً عليه يعلن عن أزمة، إلى الثلاثية التالية: العداء للقضية الأولى للمغاربة، الصحراء، ثم محاولات عديدة لنسف الدور الإقليمي للمغرب، من خلال محاولة تهميشه في الملف الليبي، ثم تسليم أحد الإرهابيين المحكومين سابقاً، محمد حاجيب، والذي أدين في المغرب بسبع سنوات سجناً، معلومات تسلمتها الاستخبارات الألمانية من نظيرتها المغربية بشأنه، وفتح الإعلام العمومي في وجهه للهجوم على أجهزة الاستخبارات المغربية!

في التقاطع الأول، بين الملفين، نجد العاصمتين الأوروبيتين على طرفي نقيض من مصلحة المغرب في قضية الصحراء، لا سيما معارضتها الواضحة للاعتراف الأميركي بسيادة المغرب على الأقاليم الصحراوية، فألمانيا التي كانت ترأس مجلس الأمن وقت إصدار الرئيس دونالد ترامب، مرسوم الاعتراف بهذه السيادة، دعت، في خطوة غير متوقعة من الرباط، إلى اجتماع طارئ لمجلس الأمن الذي أعلن عنها تنتياهو مدارسة "آثار الإعلان الأميركي" ومناقشة قرار سيادي لدولة عظمى دائمة العضوية في المجلس إياه! وهي تعرف معنى ذلك بالنسبة للمغرب، لا سيما أن رئيسها السابق، هورست كوهلر، كان قد تولى مسؤولية مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة، أنطونيو غوتيرس، في ملف الصحراء الوطنية، قبل أن يقدم استقالته لـ«أسباب صحية!».

وقد اصطفّت إسبانيا على الموقف نفسه، بل ذهبت به أبعد إلى حدّ مطالبة واشنطن بالتراجع عن القرار والغائه، ودفعت باتجاه تعطيل أيّ تبعات إقليمية لهذا القرار. إسبانيا التي ركّزت، في وقت سابق، تطهير المغرب معبر الكركرات «نقطة الاتصال بين المغرب وأفريقيا عبر ممر برّي في الصحراء، وباركت تحديد المغرب ولايته البحرية عبر ترسيم حدوده البحرية، التي تتماس، متوسطياً وأطلسياً، مع إسبانيا، تغير موقفها رأساً وآخر هناك، سواء في ما يتعلق بنفوذها في العراق الآخذ بالتآكل أو في اليمن أو في سورية أو حتى في لبنان الذي بات يعاني من ضغط وجود حزب الله وعبئه، ربما بشكل أكبر من أي وقت مضى.

اليوم وبعد سنوات من الشدّ والجذب الذي شهدته المنطقة، وحرب المحاور التي رعتها واشنطن، تجد المنطقة نفسها مكبّلة أكثر من أي وقت، بمشكلاتها وتعقيداتها وتقاطعاتها. وفي خضم ذلك، تأتي الرغبة الأميركية بالانسحاب من ملفات الشرق الأوسط، لتسارع الخواصم المتقاطعة والمتصارعة حتى، إلى إعادة ترتيب أوراقها بحثاً عن سنوات سمان، يعقبن بيد طهران، بعد الكمّ الهائل من الوثائق التي تمت سرقتها. وبالتالي، فإنّ العودة إلى هذا الاتفاق ستكون سيفاً مسلطاً على رقبة طهران التي تدرك ذلك جيداً، والتي باتت اليوم تبحث، هي الأخرى، عن أبواب المصالحة والتهدئة في المنطقة، ولعلّ ما تم في بغداد من لقاءات بين مسؤولين إيرانيين وسعوديين يؤكد ذلك.

صحيحٌ أنّه ما زالت لدى طهران أوراق لعب، لكنّ واحدة من أقواها ملفها النووي الذي بات محاصراً، لتبقى الأوراق الأخرى وسائل ضغط ومقامرة لتحقيق هدف هنا

> ابانت الرباط عن صراحة وصرامة دبلوماسيتين، إزاء دولتين اوروبيتين، تشترك معهما مصالح كثيرة

الشرق الأوسط والسبع السمان

إياد الدليمي

بداية، نتفق أنّ إدارة الرئيس الأميركي جو بايدن، لا تختلف عن إدارة سلفه دونالد ترامب، في سعيها الحثيث إلى تحقيق مصالح الولايات المتحدة الأميركية، بل ربما لا مبالغة في القول إنّ كلتا السياستين وجهان لعملة واحدة، فلا فرق بين ديمقراطي وجمهوري في ما يخص قضايانا، إلّا بالقدر الذي قد تتوافق فيه وسائلها وتكتيكاتها. وعليه، بدأت في نشر تديّنٍ شعبيّ، أو علميّ تخصصي، أو مسجديّ حلقيّ يتلاءم بتنوّعاته مع معطيات البيئة المحيطة اجتماعيّاً وسياسيّاً. وغدا الثالوث المقدس (السيا

«أليس الصبح بقريب»

محمد أبو رمان

يقطع ساري حنفي، رئيس الجمعية الدولية لعلم الاجتماع وأستاذ الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت، خطواتٍ أخرى في مساره البحثي، المدروس بعنايةٍ فائقة، في دراسة «مجتمع المعرفة» في العالم العربي، والتركيز على العلاقة بين البحث العلمي والمشكلات السياسية والمجتمعية والثقافية، بعد أن قدّم مساهمات مهمة سابقة في هذا المجال. في كتابه الجديد «علوم الشرع والعلوم الاجتماعية: نحو تجاوز القطيعة .. أليس الصبح بقريب» (مركز نهوض للدراسات والنشر، بيروت، 2021)، يلج حنفي إلى موضوع على درجة عالية من الأهمية والتشويق، عندما يراجع الكتب والمقرّرات والمناهج التي تدرّس في كليات الشريعة في ثماني دول، سبع منها عربية (الأردن، لبنان، سورية، المغرب، الجزائر، قطر، الكويت) بالإضافة إلى تجربة الجامعة الإسلامية في ماليزيا. الكتاب بمثابة مشروع بحثي كبير، بدأ فيه المؤلف منذ قرابة خمسة أعوام، وأجرى مقابلاتٍ عديدة، وقاد فريقاً بحثياً في الدول المذكورة، ليطرح أسئلة مهمة ورئيسية، أبرزها عن الأهداف والمواصفات التي تضعها كليات الشريعة في العالم العربي من بناء قدرات ومهارات لدى خريجيها، ما هي صفات الخريّج، وما هي المؤهلات التي من المفترض أن يتوافر عليها؟ هل تهدف إلى التمكين فقط من خلال علوم الفقه والعقيدة والدراسات الإسلامية بعيداً عن إدراك الواقع ومقتضياته وشروطه، أم أنّها تسعى فعلاً إلى بناء شخصية «المؤمن» في إطار إنساني شامل؟

لم يأتِ السؤال السابق من فراغ، بل من فلسفة مهمة وجوهرية، تقوم على أنّ القطيعة الحادثة، في أحيان كثيرة، بين العلوم الدينية والاجتماعية، أتت، وما تزال، بنتائج سلبية وكارثية على المجتمعات والأمم العربية والمسلمة، لأنّها تمثل رافداً لحالة الاستقطاب الموجودة في العالمين، العربي والإسلامي، والتنافر بين التيارات الإسلامية والعلمانية بألوانها المختلفة، بين الواقع والتاريخ والأصالة والمعاصرة، وهكذا..

وإذا كان (وهذه الإضافة من عندي) عديد من كبار المثقفين والمفكرين العرب والمسلمين حاولوا سابقاً الاشتباك مع إشكالية الأصالة والمعاصرة، التراث والواقع، فإنّهم دخلوا من مداخل فكرية على الأغلب، وبالتالي حاولوا تقديم وصفات مهمة، لكنها خارج إطار معمل الشريعة والفقه الذي ينتج المعرفة الدينية والمجتمع الهائل والكبير الذي يحتضنها، بينما صاحبنا (ساري حنفي) قرّر الدخول من باب آخر، من كليات الشريعة نفسها، ليحلّل ويشرّح المناهج والأفكار والمساقات والفلسفات التي تقف وراء وضع المقرّرات وأساليب التدريس، ويتساءل فيما إذا كانت هذه الكليات بالفعل تساهم في ردم الفجوة أو القطيعة بين العلوم الشرعية والاجتماعية أم العكس تماماً. لا أريد أن أصادر على النتائج المهمة في الكتاب، وأتركها للقارئ ليستمتع بتلك الرحلة المهمة في كليات الشريعة ومناهجها ومجتمع كليات الشريعة في العالم العربي، مع لغة جميلة سلسة. لكن الإشارة التي قدّمها حنفي في تبريره هذا الكتاب مهمة للغاية؛ وتتمثل في أنّ الشريعة الإسلامية ليست مقرّرات ومتونا وكتبا منفصلة عن الواقع والسياقات التاريخية وفهم تحولات المجتمع، فالفقه بما هو «حكم شرعي» بحدّ ذاته «فرع عن التصوّر العام للموضوع»، ما يعني أنّ العلوم الاجتماعية والإنسانية مهمة جداً في بناء قدرات طلاب الشريعة المعرفية والبحثية، فضلاً عن تحقيق الغايات والمقاصد التي جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيقها.

هنا يناقش حنفي أهمية فروع من علوم الشريعة تساعد تماماً على تجسير تلك الفجوة (بين علوم الشرع وعلوم الاجتماع) كعلم الأخلاق، بأبعاده الإنسانية والحضارية، ومقاصد الشريعة الإسلامية وغاياتها.

في ظني، أنّ قصة الكتاب التي ذكرها المؤلف تمثّل قيمة إضافية مهمة بذاتها، وقد ولج من خلال تجربته الشخصية وتطوّره الروحي والفكري والمعرفي، بداية من طفولته في مخيم اليرموك في دمشق، وتعرّفه على خطاب أبرز العلماء والمشايخ في الشام (كمؤسس التيار السلفي محمد ناصر الدين الألباني، وأحد أبرز علماء الأشعرية المعاصرين، محمد سعيد رمضان البوطي)، ثم انتقاله إلى

> رحلة شخصية غنية وثرية في وسط تضاريس التيارات الفكرية المتنوعة في العالم العربي

الفكر بروافده المختلفة والمتنوعة، للمفكرين العرب المعروفين، ومزاوجته بين تعرّفه على مجتمع التيارات الإسلامية والمجتمعات العلمانية الفكرية الأخرى، بخاصة اليسارية، مروراً بتجربة اليسار الإسلامي، وكتابات حسن حنفي المعروفة ومحاولاته في «تثوير التراث»، وصولاً إلى جلسات الحوار الفكرية والسياسية في دمشق، وعلاقته بأحد المثقفين المتميزين الملتزمين، جودت سعيد، صاحب مذهب ابن آدم الأول، ومنظّر مدرسة اللاعنف في الفكر الإسلامي، ومريد المفكر الجزائري مالك بن نبي.

هي رحلة شخصية غنية وثرية في وسط تضاريس التيارات الفكرية المتنوعة والمتعدّدة في العالم العربي، ما يعطي المسافر فيها خبرة علمية وعملية مميزة، ويصقل قدرته على المقارنة والنقد والارتقاء فوق الاختلافات الفكرية والمعرفية. والجميل في هذه الرحلة أنّها تحاكي قصة أجيال عربية ممن كانت، وما تزال، تبحث عن هويتها الفكرية أو عن طريق يسير بنا نحو المستقبل. وليست مصادفة، إذن، أن الصديق العزيز ساري حنفي بدأ من سؤال الأمير شكيب أرسلان رحلته الفكرية «لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم؟»، وافتتح كتابه، بل عنونه، بكتاب أحد أبرز العلماء المستنيرين في التاريخ الحديث، محمد الطاهر بن عاشور، الذي كتبه قبل أكثر من قرن بعنوان «أليس الصبح بقريب؟» يتناول فيه موضوع الإصلاح الديني في المعاهد والكليات الشرعية. وقد تواصل حنفي، بعد هذا الزمن الطويل، مع روح ابن عاشور محاولاً تقديم إضافة معرفية قيمة، ومستسمحاً له بإعادة طرح العنوان نفسه «اليس الصبح بقريب؟»، وما ذلك إلا انطلاقاً من الهواجس المعرفية والبحثية، التي انطلق منها حنفي، وتتمثّل في أنّ تجاوز تلك القطيعة بين علوم الشريعة وعلوم الاجتماع من الممكن أن يكون حلاً مهماً ومفتاحاً ذهبياً للخروج من حالة الاستقطاب الأيديولوجي/ أو الانفصام المجتمعي بين الدين والواقع، بين الشرع وعلوم الاجتماع، وهي القضية التي يستأنف فيها حنفي جهود مدرسة الإصلاح الأولى التي كان أحد أبرز روادها الإمام الشيخ محمد عبده.

(كاتب ووزير أردني سابق)

القرآن والإنسان وأخلاق المستبدّين

مهنا الحبيل

تقوم الأسس الإيمانية للرسالة الإسلامية على يقينيات إدراكٍ كُليّة. وحين نقول يقينيات فهي تجمع بين ما يسمّى، منذ الفلسفة القديمة، عالم الشهود، أي ما يشهده الإنسان ببصيرته، خلقٌ منتظم الدقة يستحيل تكوّنه مصادفة، وجسم الإنسان المتسق مع الخلق العام، وما يسخّر له في هذه الأرض، وهو عالم متصلٌ بكلّ اكتشافات العالم التجريبية الحسيّة، القائمة على قطعيةٍ علمية، لا نظريات جدلية.

كصفات التطور، على سبيل المثال، ما هي في الأصل وكيف انتهت إليه، في حين أنّ التطور في معالم الجسم الأساسي لم تتغير منذ بدأ الخلق في أصل المكونات، وفي نشأتها الأولى التي نصّ عليها القرآن: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»، وفي الآية الأخرى: «أَلَمْ نَخْلُقْكُم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ». فلا يوجد على الإطلاق في عمر الحياة الإنسانية ما ينقضُ دلائل الخلق المادي التي وردت في الكتاب العزيز، وهي تُستشرف في كلّ مراحل الخلق وتُعلم يقيناً.

أما الثاني فهو إيجاد الروح التي تربط بين كتلة المادة المنسجمة في ذات الإنسان، وما بينه والعوالم الأخرى المتعدّدة حوله، ويُستبصر الانسجام الكوني المعجز فيها، كما في تسخير الطبيعة للإنسان، وهو ما يعزّز دوماً هذه القاعدة اليقينية. ونجد هنا عالم الغيب الذي يتحدث عنه الله عز وجل، موجدُ النشأة والروح، وهو عالمٌ لا يُدرك بالحسيّة المباشرة اليوم قطعاً، ولكنه بُلّغ للبشرية عبر الرسل والرسالات التي من المستحيل أن تتواطأ عليها، وهي موثّقة في ميراث الشعوب وفي العالم القديم، وفي آثار تلك النبوات، القرآن فصل لنا فيها. وهي متطابقة مع ما يصحّ من تاريخ الأمم القديمة ودلائل وجودها على الأرض، وبالذات في الشرق، كونه مهبط تلك الرسل، وموقع الصراع بينه وبين المستبدّين المتألّهين الذين اضطهدوا العالم القديم، وأرهبوا الأبرياء، وهذا التألّه الذي حاربه القرآن يتكرّر اليوم، في مستبدّين بعضهم يزعم أنّه مسلم، وهو يمارس «ألوهية» إرهابية، عظّم جرمها القرآن. هنا يتبيّن لنا هذا المسار المتناسق، ويبقى الوعد الإلهي أو التوعد لحمل الذات على تجنّب الضلال، كونها تحتاج إلى دافع ترغيب وترهيب، ثم تؤول إلى ما بعد نهاية التاريخ التي لا يمكن للعقل البشري أن يستوعبها، ولكنّ دلائل القرآن التي وضحت الحياة أعطت تصوّراً واضحاً عنها.

وأما المعادلة الحياتية للإنسان، في فطرة الله وصلاح الأرض والانسجام مع بقية الخلق والأرحام، والإحسان بين كلّ بني الإنسان، فقد أثبتت التجربة المعاصرة أنّ ما أسمي الإنسان - الإله، الذي خلقته الحداثة المادية قد أفسد هذه الطبيعة في ذاتها، وفي ذات الإنسان وشركائه، في حين كانت في فطرتها الأولى تمثل مسلكاً أخلاقياً للوجود المشترك. هنا نفهم لماذا تَردُ آيات الوعد والوعيد، لقمع الروح المتطرّفة في تحويل ذاتها إلى ظالم نفسه ينكر حق ربه وحق الآخرين. ولكي يظلّ هذا العالم، وبالذات إنسانه، يراعي عودته الأخروية لله عزّ وجل، فيُحْسن إدارة ذاته، ويضبط أخلاقه مع الآخرين، ومع الحيوان والمادة والجسم الكوني الشامل في الناموس الذي يعيشه ويستشعره.

هذا المدار الكامل للحياة نفهم منه البعد الأخلاقي المركزي لحياة المسلمين، في الندب الأول القديم لهم حتى آخر لحظات الحياة. والمسلمون هنا هم من انطبق عليه معنى الفهم والتسليم، ثم التعبد بالجوهر الأخلاقي مع الله ومع الناس، في كلّ دورات التاريخ البشري، والله أعلم بمدار الإنسان وأحواله، وما يُقبل منه في كلّ ظرفٍ وعالم زمني، والرحمة المؤسّسة على العدل، أو القائمة بذاتها هي قاعدة البلاغ القرآني.

ولكون الظلم أبشع صور السوء الأخلاقي، فقد كان متواتراً في القرآن الكريم، معزّزاً بالشواهد، يوجّه تقريعه دوماً لذوي النفوذ، لا المستضعفين، إلا من تابع أو دعم المستبد في ظلمه، بل إنّ المستضعفين والمظلومين والمضطهدين وذوي الحاجات دائماً في

> لكون الظلم أبشع صور السوء الأخلاقي فقد كان متواتراً في القرآن الكريم، معزّزاً بالشواهد

مركز الدفاع القرآني، والحثّ على نجدتهم ورعايتهم. وهم دوماً في مسؤولية الدفاع النبوي على مدار التاريخ القديم، منذ أول رسالة إلى مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، في حين كان الطغاة والظلمة في مركز هجوم القرآن وتعريته لهم، بل والسخرية من دعاوى إيمانهم «فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

تجلية هذا الأمر اليوم قضية مهمة، لوضع الإطار التصوّري الصحيح، عن دعاوى الوعّاظ أو خطاب المستبدّين بذاتهم، عن صفتهم الدينية، أو صلاحيات التشريع المزعومة لهم، وإعطاء ذواتهم غطاءَ تزكية، وقد قطع الله بتوعّدهم يوم العرض الأكبر. إنّ هذا السياق لا يَدمج بالطبع كل مستويات الظلم في إطار واحد. لكن، لأنّ مفردة الظلم دلالة، وممارسته قائمة وإن كانت ضدّ نفس واحدة، فقد جاء النص «من قتل نفساً بغير نفسٍ فكأنما قتل الناس جميعا»، ليُعلن للتاريخ البشري أنّ قتل نفسٍ واحدةٍ بغير حق، أيّ نفس، مؤمنة أو غير مؤمنة، فكأنّما قتل الناس جميعاً فيها، لماذا؟ لأنّ إباحة قتل نفسٍ تعني إجازة التشريع بذلك والتهوين منه، فلننتبه هنا إلى دقّة التحذير القرآني، ثم لنعد إلى معنى قول النبي، صلى الله عليه وسلم «لأن تُهدم الكعبة حجراً حجراً أهون على الله من أن يراق دم امرئٍ مسلم»، وهنا ربط البيت العتيق بدم المسلم، لأنه أقرب عند المستبدّين الاحتجاج بالرموز الدينية في قتل المسلم، فجُعلت حياته أهم من حرمة البيت العتيق المتّصلة بالله عز وجل، في بلاغ مقدس لا مثيل له.

ثم ننظر في معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم، هو بذاته يعلن أنّه من سيُحاجج يوم القيامة عن غير المسلمين الذين ظلموا من مسلمين، يترافع عنهم في محكمة العدل الإلهية، لصالح مظلوم غير مسلم في مقابل المسلمين الظالمين، فما أكثر الظلم اليوم في دين المستبدّين.

(كاتب عربي في كندا)

هبّة القدس وتباشير التجديد للحركة الوطنية الفلسطينية

نهاد أبو غوش

بصدور عارية ومشرعة للرصاص الحي والمطاطي، وقبضات مرفوعة تلوّح بالتحدي والغضب، وحناجر صادحة بتكبيرات وخليط من أغان وهتافات دينية ووطنية ويسارية، تقدم جماهير القدس، وبخاصة شبابها، معادلة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بأكثر صورها بساطةً وبلاغةً في الوقت نفسه: شعب أعزل إلا من الإرادة يدافع عن وجوده وكرامته الإنسانية أمام أعتى قوة احتلال غاشم. وسرعان ما يمتد لهيب الأحداث والمواجهات إلى المناطق المحتلة منذ العام 1948، ومختلف مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة، وأماكن اللجوء الفلسطيني في بلدان الشتات والاغتراب. وباتت هبّة القدس واحداتها اليومية تطرق أبواب العواصم العربية والإسلامية كافة، مستنفرةً أشكالا متنوعة من التضامن، ولكنها، وهذا هو الأهم، هزّت الركود الذي سيطر على المشهد طوال العقد الفائت، وساهمت أيضا في تبدد أوهامٍ كثيرة نشأت بفعل اتفاقيات «أبراهام». أربكَ الموقف إسرائيل، وعرفت شرطتها وأجهزة أمنها وحكومتها سلسلة قرارات مرتجلة سرعان ما تراجعت عنها، مثل وضع الحواجز ورفعها، ومنع دخول بعض الأمكنة ثم السماح بذلك، وتوفير غطاء لوجستي داعم لغلاة المستوطنين، وبعدها منعهم من تصدّر المواجهات، ثم إغلاق الشوارع المؤدية إلى المسجد الأقصى، ومحاولات منع فلسطينيي الداخل من الوصول إلى القدس ثم التراجع السريع عن القرار، وشن حملات اعتقالات جماعية يتلوها سريعا الإفراج عن معظم المعتقلين. ولعل مردّ الارتباك الإسرائيلي هو في عدم توقع الأوساط السياسية والأمنية تصاعد هذا المدّ الجماهيري العفوي، و«الثبات الملحمي في المكان»، حسب ما ورد في إعلان الاستقلال قبل 33 عاما بصياغة الشاعر محمود درويش، وكذلك بسبب الارتباك السياسي الناجم عن الحسابات المعقدة لحكومة نتنياهو، وهي حكومة تصريف أعمال غير مستقرّة، وكتل وأحزاب تزاود على بعضها بعضا، وتخطب ودّ المتطرّفين بإظهار تشدّدها تجاه الفلسطينيين والقضايا الساخنة، كموضوع السيادة على المدينة المقدسة. تدرك الأوساط السياسية الإسرائيلية المختلفة، باستثناء غلاة المستوطنين والمتطرّفين، أمثال مجموعة لهافا وحزب القوة اليهودية الذي يقوده النائب الجديد في الكنيست إيتامار بن غفير، السائر على خطى الحاخام العنصري وداعية العنف، مائير كهانا، تدرك أن محاولات فرض سياسات وإجراءات جديدة لتغيير الوضع القائم في القدس والمسجد الأقصى تشبه اللعب بالنار، وقد جرّبت إسرائيل ذلك مرات، فانتقل لهيب الأحداث من المسجد الأقصى إلى كل القدس إلى عموم المناطق الفلسطينية. وأبسط ما يمكن أن يجرّ إليه ذلك هو الدخول في دورة جديدة من العنف والعنف المضادّ، ودخول الأراضي الفلسطينية المحتلة، مع مؤسسات السلطة، في حال من الفوضى التي قد تعصف بإنجازات سنوات من الهدوء والاستقرار، وتهدّد تنفيذ خطط ومشاريع تحسم مصير الأراضي المحتلة إلى الأبد، أبرزها خطة الضم الزاحف التي يجري تنفيذها عمليا من دون إعلانات صاخبة. ولكن أطرافا أخرى، فلسطينية هذه المرّة، قد تشعر بالحرج والإرباك، نتيجة استمرار هبّة القدس واتساعها وخروجها عن سيطرة أية جهة، مع أن الهبّة/ الانتفاضة حظيت بكل أشكال الدعم المعنوي والمديح التي يمكن تخيلها من كل القوى السياسية من دون استثناء، فقد بدا واضحا، بكل جلاء، اتساع الفجوة بين القيادات الرسمية للسلطة والفصائل ومنظمة التحرير الفلسطينية وسائر مكونات النظام السياسي الفلسطيني من جهة، والأحداث المتصاعدة على الأرض، والتي تتخذ طابعا عفويا مستقلا عن إدارة أية جهة سياسية أو توجيهاتها.

مؤكّد أن منتسبي الفصائل السياسية الفلسطينية وناشطيها يشاركون كغيرهم في مواجهات القدس، ويمكن معرفة ذلك من أسماء المعتقلين ووجوه الناشطين التي تظهر في مختلف ساحات التصدّي لقوات الاحتلال

> تجري هبّة القدس وتتعاظم خارج الأطر الرسمية للحركة الوطنية الفلسطينية وتنظيماتها التقليدية

والمستوطنين. لكن المؤكد أيضا أن الأحداث لا تخضع لتخطيطٍ مسبق، ولا لتعليماتٍ تأتي من رام الله وتونس، أو للجان التنسيق الفصائلي، ولا لقيادة أو غرفة عمليات يومية، تعطي توجيهاتها كما كان عليه الحال خلال الانتفاضة الأولى، بل تفرض أشكال التنظيم العفوي والذاتي، وأحيانا الارتجالي، على الهبّة بكل مراحلها. وهذا ما يعطيها قوة من ناحية، وخصوصا لجهة عمقها الشعبي، وصعوبة التأثير عليها باعتقال قياداتها، لكنّه يبقيها عرضةً لمناورات قوات الاحتلال الأكثر خبرة ووحدة وتنظيما. تتسم هبة القدس بطابعها الشعبي العميق، إذ تشارك فيها مختلف الفئات والشرائح الاجتماعية والسياسية. ومن السهل تمييز مجموعات من المثقفين والفنانين والمهنيين والطلبة، إلى جانب المرابطين والمرابطات ممن اعتادوا الاعتكاف لأسباب دينيةٍ في المسجد الأقصى، كما يتشارك الشّباب والشيوخ، ونساء محجّباتٌ ومنقباتٌ وأخرياتٌ سافرات الوجه، ومسيحيون ومسلمون في فعاليات المواجهات كافة، بما في ذلك الطقوس الاحتفالية لوجبات الإفطار الجماعية التي غالبا ما تتحوّل إلى مواجهاتٍ مع المستوطنين والشرطة، وتلتحق أفواجٌ تلو الأفواج من فلسطينيي المناطق المحتلة عام 1948 بساحات المواجهة في الشيخ جرّاح والمسجد الأقصى. جاءت أحداث القدس وقيادات المؤسسة السياسية الفلسطينية غارقة في إشكالاتها الذاتية، فخياراتها السياسية مربكة ومبهمة مع مجيء إدارة جو بايدن إلى البيت الأبيض، والتي لا تولي (حتى الآن؟) اهتماما كبيرا بالموضوع الفلسطيني، وعلاقات هذه القيادة مع الدول العربية متوترة ومحفوفة بالشكوك والهواجس، وأزمات علاقاتها الوطنية الداخلية تتفاقم مع انتكاس مسيرة المصالحة وإلغاء الانتخابات، ومخاطر العودة إلى أسوأ أيام الانقسام الذي قد يقود إلى انفصال دائم.

(كاتب فلسطيني)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads